إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون!!

ما دمت مُلزمًا فاستمتع.

هكذا كنت أقول لشاب أصيب بمرض السكر.. فكان يشرب الشاي من غير سكر.. ويتأسف لحاله.

كنت أقول له: هل إذا تأسفت وحزنت أثناء شربك الشاي.. هل تنقلب المرارة حلاوة.

قال: لا. **قلت:** ما دمت ملزمًا.. فاستمتع. أعني أنّ الدنيا لا تأتي دائمًا على ما نحب. وهذا يقع في حياتنا كثيرًا. سيارتك قديمة.. مكيف لا يشتغل.. مراتب ممزقة.

ولا تستطيع حاليًا تغييرها. ما الحل؟ ما دمت ملزمًا فاستمتع.

تقدمت للدراسة بالجامعة.. فقبلت في كلية لا ترغب في الدراسة فيها.. حاولت تعديل الحال فلم تستطع.. فاضطررت لمواصلة الدراسة.. وأكملت سنتين وثلاث.. فما الحل؟ ما دمت ملزمًا فاستمتع.

تقدمت لوظيفة فلم تقبل.. وقبلت في أخرى.. وبدأت دوامك فيها.

فما الحل؟ ما دمت ملزمًا فاستمتع.

خطبت فتاة فرفضت.. وتزوجت آخر.

ما الحل؟ ما دمت ملزمًا فاستمتع.

كثير من الناس يجعل الحل هو الاكتئاب الدائم.. والتأفف من واقعه.. وكثرة التشكي إلى من عرف ومن لم يعرف! وهذا لا يَرُدُّ إليه رزقًا فاته.. ولا

يعجل برزق لم يكتب له. إذن ما الحل؟

إذا لم يكن ما تُريد فأرد ما يكون.

العاقل فهو الذي يتكيف مع واقعه كيفما كان.. مادام لا يستطيع التغيير إلى الأحسن. أحد أصدقائي كان يشرف على بناء مسجد.. فضاقت بهم النفقة.. فتوجهوا إلى أحد التجار للاستعانة به في إكمال البناء. فتح لهم الباب.. جلس معهم قليلًا.. وأعطاهم ما تيسر.. ثم أخرج دواء من جيبه وجعل يتناوله.. قال له أحدهم: سلامات.. عسى ما شر!!

قال: لا.. هذه حبوب منومة.. منذ عشر سنين لا أنام إلا بها.

دعوا له: وخرجوا.. فمروا على حفريات وأعمال طرق عند مخرج المدينة.. وقد وضع عندها أنوار تعمل بمولد كهربائي قد ملأ الدنيا ضجيجًا.

ليس هذا هو الغريب. الغريب أن حارس المولد هو عامل فقير قد افترش قصاصات جرائد.. ونام.. نعم.. عش حياتك.. لا وقت فيها للهمِّ.. تعامل مع المعطيات التي بين يديك.

خرج ﷺ مع أصحابه في غزوة فقلَّ طعامهم.. وتعبوا.. فأمرهم.. أن يجمعوا ما عندهم من طعام.. وفرش رداءه.. وصار الرجل يأتي بالتمرة.. والتمرتين.. وكسرة الخبز.. وكلها تجتمع فوق هذا الرداء.

ثم أكلوا.. وهم مستمتعون.. ربما لم يشبع منهم أحد.. لكنه على الأقل أكل ما يسدُّ به رمقه.. والجود من الموجود.

لمحة

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

نختلف ونحن إخوان!

ذُكر أن الشافعيَّ -رحمه الله- تناظر يومًا مع أحد العلماء حول مسألة فقهية عويصة.. فاختلفا.. وطال الحوار.. حتى علت أصواتهما.. ولم يستطع أحدهم أن يقنع صاحبه.. وكأن الرجل تغير وغضب.. ووجد في نفسه.

فلما انتهى المجلس وتوجها للخروج.. التفت الشافعي إلى صاحبه.. وأخذ بيده وقال: ألا يصح أن نختلف ونبقى إخوانًا..!

وجلس بعض علماء الحديث يومًا.. عند الخليفة.. فتكلم رجل في المجلس بحديث.. فاستغرب العالم منه.. وقال: ما هذا الحديث!! من أين جئت به؟ تكذب على رسول الله ﷺ؟

فقال الرجل: بل هذا حديث ثابت.

قال العالم: لا.. هذا حديث لم نسمع به ولم نحفظه.

وكان في المجلس وزير عاقل.. فالتفت إلى العالم وقال بهدوء: يا شيخ.. هل حفظت جميع أحاديث النبي ﷺ..؟

قال: لا. **قال:** فهل حفظت نصفها؟ **قال:** ربما. **فقال:** فاعتبر هذا الحديث من النصف الذي لم تحفظه. وانتهت المشكلة.

كان الفضيل بن عياض وعبد الله بن المبارك صاحبين لا يفترقان.. وكانا عالمين زاهدين.

مضت الأيام فخرج عبد الله بن المبارك فخرج للقتال والرباط في الثغور.. وبقي الفضيل بن عياض في الحرم يصلي ويتعبد.

وفي يوم رقَّ فيه القلب.. وأسبلت الدمعة.. كان الفضيل جالسًا يتعبد في

الحرم.. فاشتاق لصاحبه ابن المبارك وتذكر اجتماعهما في مجالس الذكر.. فكتب الفضيل إلى ابن المبارك كتابًا يدعوه فيه إلى المجيء والتعبد في الحرم.. والاشتغال بالذكر وقراءة القرآن.

فلما قرأ ابن المبارك الكتاب.. أخذ رقعة وكتب إلى الفضيل:

يـا عابـد الحـرمين لـو أبصرتنـا ... لعلمـت أنـك في العبـادة تلعـب

مـن كـان يخضـب خـده بدموعـه ... فنحورنـا بـدمائنا تتخضـب

أو كـان يتعـب خيلـه في باطـل ... فخيولنـا يـوم الصـبيحة تتعـب

ريـح العبـير لكـم ونحـن عبيرنـا ... رهـج السـنابك والغبـار الأطيـب

ولقـد أتانـا مـن مقـال نبينـا ... قـول صـحيح وصـادق لا يكـذب

لا يسـتوي غبـار خيـل الله في ... أنـف امـرئ ودخـان نـار تلهـب

هـذا كتـاب الله ينطـق بيننـا ... لـيس الشـهيد بميـت لا يكـذب

ثم قال: إن من العباد من فتح الله له في الصيام.. فيصوم ما لا يصومه غيره.

ومنهم من فتح له في قراءة القرآن.

ومنهم من فتح له في طلب العلم.

ومنهم من فتح له في الجهاد.

ومنهم من فتح له في قيام الليل.

وليس ما أنت عليه بأفضل مما أنا عليه.

وما أنا عليه.. ليس بأفضل مما أنت عليه.

وكلانا على خير.. وهكذا انتهى الخلاف بينهما بهدوء.. هكذا ببساطة

كلانا على خير.. ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

وهكذا كان منهج الصحابة..

اجتمع الكفار وتألبوا لحرب المسلمين في المدينة.. وجاءوا في جيش لم تشهد العرب مثله كثرة وعتادًا.. فحفر المسلمون خندقًا لم يستطع الكفار أن يتجاوزوه لدخول المدينة.. فعسكر الكفار وراء الخندق.

وكان في المدينة قبيلة بني قريظة.. وهم يهود يتربصون بالمؤمنين.. فأقبلوا إلى الكفار يمدونهم.. ويعيثون في المدينة فسادًا ونهبًا.. وقد انشغل المسلمون عنهم بالرباط عند الخندق.

ومضت الأيام عصيبة.. حتى أرسل الله على الكفار ريحًا وجنودًا من عنده فتمزق جيشهم.. وانقلبوا خائبين.. يجرون أذيال هزيمتهم في ظلمة الليل.

فلما أصبح رسول الله ﷺ.. انصرف عن الخندق راجعًا إلى المدينة.. ووضع المسلمون السلاح.. ورجعوا إلى بيوتهم.. ودخل رسول الله ﷺ بيته.. ووضع السلاح واغتسل.

فلما كانت الظهر جاءه جبريل عليه السلام، فنادى رسول الله ﷺ.. من خارج البيت.. فقام رسول الله ﷺ فزعًا؛ فقال له جبريل عليه السلام: «**أوقدْ وضعت السلاح يا رسول الله؟**». **قال**: نعم.

قال جبريل عليه السلام: «ما وضعت الملائكة السلاح بعد.. وما رجعت الآن إلا من طلب القوم.. طلبناهم حتى بلغنا حمراء الأسد.. يعني قريشًا لما فارقوا المدينة راجعين إلى مكة.. سارت الملائكة وراءهم تطردهم لتبعدهم عن المدينة».

ثم قال جبريل عليه السلام: **«إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة.. فإني عامد إليهم فمزلزل بهم»**.

فأمر رسول الله ﷺ مؤذنًا فأذن في الناس: **«من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»**.

فتسابق الناس إلى سلاحهم.. وسمعوا وأطاعوا.. ومضوا إلى ديار بني قريظة.. فدخل عليهم وقت العصر وهم في الطريق.

فقال بعضهم: لا نصلي العصر إلا في بني قريظة.

وقال بعضهم: بل نصلي لم يُرِدْ منا ذلك.. يعني: إنما أراد الإسراع إليهم.

فصلوا العصر وأكملوا مسيرهم.. وأخَّرها الآخرون حتى وصلوا إلى بني قريظة فصلوها.. فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحدًا من الفريقين.

ثم حاصر النبي ﷺ بني قريظة.. حتى نصره الله عليهم.

فتأمل كيف كانوا يختلفون وهم إخوان لا يؤدي خلافهم إلى فساد النفوس أو الشقاق أو الخصومات.

صدقني.. إذا تعاملت مع الناس بهذه الأريحية والهدوء وسعة الأفق أحبك الناس ودخلت قلوبهم.. وأحبك قبل ذلك الله جلَّ وعلا.. فالخلاف شرٌّ.

وجهة نظر

ليست الغاية أن نتفق.. لكن الغاية ألا نختلف.

الرفق.. إلا زانه

يتكرر على ألسنتنا كثيرًا عندما نعجب بشخص ما.. أن نصفه قائلين:

فلان رزين.. فلان ثقيل.. فلان راكد.

وإذا أردنا مذمة شخص قلنا: فلان عجول.. فلان خفيف.

أما رسول الله ﷺ فيقول: «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه.. وما نزع من شيء إلا شانه..**»[1].

هل تستطيع تحريك طن الحديد بأصبع؟

نعم: إذا أحضرت رقعة.. ثم ربطته برفق.. وأحكمت ربطه.. ثم رفعته.. فإذا تعلق في الهواء.. حركة بأصغر أصابعك.

اتفق صديقان على أن يتقدما لرجل لخطبة ابنتيه.. كانت إحداهما أكبر من الأخرى. **قال أحدهما للآخر**: أنا آخذ الصغيرة.. وأنت تأخذ الكبيرة.

فصاح صاحبه: لا.. بل أنت خذ الكبيرة.. وأنا آخذ الصغيرة.

فقال الأول: طيب.. أنت تأخذ الصغيرة.. وأنا آخذ التي أصغر منها.

قال: موافق..!! ولم يدرك أن صاحبه ما غير قراره.. سوى أنه غير أسلوب الكلام برفق.

وفي الحديث: «**إذا أراد الله بأهل بيت خيرًا أدخل عليهم الرفق.. وإذا أراد الله بأهل بيت شرًّا.. نزع منهم الرفق**»[2].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد، وهو صحيح.

وفيه: «إن الله رفيق يحب الرفق.. ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف.. وما لا يعطي على ما سواه»..[1]

الرفيق.. الهين اللين.. محبوب عند الناس.. تطمئن إليه النفوس.. وتثق فيه.. خاصة إذا صاحب ذلك وزن للكلام.. وقدرة على التعامل الرائع.

من أشهر علماء الحنفية الإمام أبو يوسف القاضي.. هو أشهر طلاب أبي حنيفة.

كان أبو يوسف في صغره فقيرًا.. وكان أبوه يمنعه من حضور درس أبي حنيفة.. ويأمره بالذهاب للسوق للتكسب.. كان أبو حنيفة حريصًا عليه.. وإذا غاب عاتبه.

فاشتكى أبو يوسف يومًا إلى أبي حنيفة حاله مع والده.. فاستدعى أبو حنيفة والد أبي يوسف وسأله: كم يكسب الولد كل يوم؟

قال: درهمين.

قال: أنا أعطيك الدرهمين.. ودعه يطلب العلم.

فلازم أبو يوسف شيخه سنين.

فلما بلغ أبو يوسف سن الشباب.. ونبغ على أقرانه.. أصابه مرض أقعده.. فزاره أبو حنيفة.. وكان المرض شديدًا متمكنًا منه.. فلما رآه أبو حنيفة حزن.. وخاف عليه الهلاك.

وخرج وهو يكلم نفسه قائلًا: آآآه يا أبا يوسف.. لقد كنت أرجوك للناس من بعدي!!

---

(١) رواه مسلم.

ومضى أبو حنيفة يجر خطاه حزينًا إلى حلقته وطلابه.

ومضت يومان.. فُشفي أبو يوسف.. واغتسل ولبس ثيابه ليذهب لدرس شيخه.. فسأله من حوله: إلى أين تذهب؟

قال: إلى درس الشيخ.

قالوا: إلى الآن تطلب العلم؟ أنت قد اكتفيت.. أما بلغك ما قال فيك الشيخ؟

قال: وما قال؟!

قالوا: قد قال: كنت أرجوك للناس من بعدي.. أي أنك قد حصلت كل علم أبي حنيفة.. فلو مات الشيخ اليوم جلست مكانه.

فأعجب أبو يوسف بنفسه.. ومضى إلى المسجد ورأى حلقة أبي حنيفة في ناحية.. فجلس في الناحية الأخرى..

وبدأ يُدرِّس ويفتي!.

التفت أبو حنيفة إلى الحلقة الجديدة.. فسأل: حلقة من هذه؟

قالوا: هذا أبو يوسف.

قال: شُفي من مرضه؟!

قالوا: نعم.

قال: فلم لم يأت إلى درسنا؟!

قالوا: حدثوه بما قلت.. فجلس يدرس الناس واستغنى عنك.

ففكر أبو حنيفة كيف يتعامل مع الموقف برفق.. وجعل يتأمل ثم قال: يَأبى أبو يوسف إلا أن نُقشر له العصا!!

ثم التفت إلى أحد طلابه الجالسين وقال: يا فلان.. اذهب إلى الشيخ الجالس هناك.. يعني أبا يوسف.. فقل له: يا شيخ.. عندي مسألة.. فسيفرح بك ويسألك عن مسألتك.. فما جلس إلا ليسأل!!

فقل له: رجل دفع ثوبًا له إلى خياط ليقصره.. فلما جاءه بعد أيام يريد ثوبه جحده الخياط.. وأنكر أنه أخذ منه ثوبًا.. فذهب الرجل إلى الشرطة فاشتكاه فأقبلوا، واستخرجوا الثوب من الدكان.

والسؤال: هل يستحق الخياط أُجرة تقصير الثوب أم لا يستحق؟

فإن أجابك وقال: يستحق.. فقل له: أخطأت.

وإن قال: لا يستحق.. فقل له: أخطأت.

فرح الطالب بهذه المسألة المشكلة.. ومضى إلى أبي يوسف وقال: يا شيخ.. مسألة.

قال: ما مسألتك؟

قال: رجل دفع ثوبًا إلى خياط ... إلخ.

فأجاب أبو يوسف على الفور قائلًا: نعم يستحق الأجرة.. ما دام أتم العمل.. فقال السائل: أخطأت.

فنظر أبو يوسف إليه.. ثم سأله: بالله من أرسلك.. فأشار إلى أبي حنيفة.. وقال: أرسلني الشيخ.

فقام أبو يوسف من مجلسه.. ومضى حتى وقف على حلقة أبي حنيفة وقال: يا شيخ.. مسألة.. فلم يلتفت أبو حنيفة إليه.

فأقبل أبو يوسف حتى جثى على ركبتيه بين يدي الشيخ.. وقال بكل

أدب: يا شيخ.. مسألة.

قال: ما مسألتك؟

قال: تعرفها.

قال: مسألة الخياط والثوب؟

قال: نعم.

قال: اذهب وأجب.. ألست شيخًا.

قال: الشيخ أنت.

فقال أبو حنيفة في جواب المسألة: ننظر في مقدار تقصير الخياط للثوب.. فإن كن قصره على مقاس الرجل.. فمعنى ذلك أنه قام بالعمل كاملًا.

ثم بدا له أن يجحد الثوب.. فيكون قام بالعمل لأجل الرجل.. فيستحق عليه الأجرة.

وإن كان قصره على مقاس نفسه.. فمعنى ذلك أنه قام بالعمل لأجل نفسه.. فلا يستحق على ذلك أجرة.

فقبل أبو يوسف رأس أبي حنيفة.. ولازمه حتى مات أبو حنيفة.. ثم قعد أبو يوسف للناس من بعده.

فما أجمل الرفق ومعالجة الأمور بهدوء.

فلو استعمل الزوجان الرفق مع بعضهما.. وكذلك الأبوان.. والمديرون.. والمدرسون لزالت أكثر المشاكل والخصومات.

نحن مطالبون بالرفق دائمًا.. في سواقة السيارة.. في التدريس.. في البيع والشراء.

وإن كان المرء قد يحتاج الشدة أحيانًا.. حتى في النصح.. وهذا هو الحكمة في النصيحة.. وهي وضع الأمور في مواضعها.

وقد كان غضبه ﷺ دائمًا -إن غضب- في الأمور الدينية.. «**فما غضب رسول الله ﷺ لنفسه قط.. إلا أن تنتهك حرمة من محارم الله**».

قابل عمر بن الخطاب ﷺ يومًا رجلًا من اليهود فأطلعه اليهودي على كلام في التوراة.. فأعجبه.. فأمره فنسخ له.

ثم جاء عمر بهذه الصحيفة من التوراة إلى رسول الله ﷺ.. فقرأها عليه.. فلاحظ النبي ﷺ أن عمر معجب بما معه.. وأن التلقي عن الديانات السابقة إن فُتح المجال له اختلط ذلك بالقرآن والتبس الأمر على الناس.

وكيف يفعل عمر ذلك.. وينسخ.. ويكتب.. دون استئذان النبي ﷺ!!

فغضب ﷺ.. وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟! أي شاكون في شريعتي.

ثم قال: والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية.. لا تسألوهم عن شيء.. فيخبروكم بحق فتكذبوا به.. أو بباطل فتصدقوا به.. والذي نفسي بيده لو أن موسى حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني».

نعم.. نحن نقول الرفق.. الرفق.. ولكن لا بدَّ من العنف أحيانًا والغضب..[1]

ومن مواقف الغضب والصرامة أنه.

في أوائل بعثة النبي ﷺ كان يأتي عند الكعبة وقريش في مجالسهم ويصلي

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، وهو حسن.

ولا يلتفت إليهم.

وكانوا يؤذونه بأنواع الأذى وهو صابر.. وفي يوم اجتمع أشرافهم في الحجر.. فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط.

سفَّهَ أحلامنا. وشتم آباءنا. وعاب ديننا. وسب آلهتنا.

وصرنا منه على أمر عظيم.

فبينما هُمْ في ذلك.. إذ طلع رسول الله ﷺ.. فأقبل يمشي حتى استلم الركن.

ثم مرَّ بهم طائفًا بالبيت.. فغمزوه ببعض القول.. فتغيَّر وجه رسول الله ﷺ.. لكنه رفق بهم.. وسكت عنهم ومضى.

فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها.. فتغير وجهه أيضًا.. فسكت عنهم.. ومضى في طوافه.

فمرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها.. فرأى أن الرفق لا يصلح مع أمثال هؤلاء.. فوقف عليهم وقال: أتسمعون يا معشر قريش!! أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح.. ثم ظلَّ الرسول القائد البطل ﷺ واقفًا أمامهم.

فلما سمع القوم هذا التهديد.. الذبح.. وهو الصادق الأمين.. انتفضوا.. حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسه طائر وقع.. حتى أن أشدهم عليه ليتلطف معه.

وصاروا يقولون: انصرف أبا القاسم راشدًا.. فما كنت جهولًا.. فانصرف رسول الله ﷺ عنهم.

نعم..

إذا قيل: حلم قل: فللحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل

وإن كان المتتبع لسيرة النبي ﷺ يجد أنه كان يُغلِّب الرفق دائمًا.. انتبه!! ليس الضعف والجبن.. وإنما الرفق.

ومن مواقف الرفق:

أنه بعد وقعة بدر بشهر.. أراد أبو العاص زوج زينب بنت النبي ﷺ أن يرسلها إلى المدينة عند أبيها.. فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلًا من الأنصار وأمرهما بالتوجه إلى مكة.. والانتظار في موقع قريب من مكة على طريق المدينة.

فقال: كونا ببطن يأجج حتى تمرَّ بكما زينب فتصحباها فتأتياني بها.

فخرجا مكانهما.. فأمرها أبو العاص زوجها بالتجهز.. فبدأت في جمع متاعها.. فبينما هي تتجهز لقيتها هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان.

فقالت: يا ابنة محمد.. ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟

فخافت زينب وخشيت أن تكون هند تريد بها كيدًا.

فقالت: ما أردت ذلك.

فقال: أي ابنة عم.. إن أردت أن تفعلي.. فإن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك، أو بمال تتبلغين به إلى أبيك، فإنَّ عندي حاجتك فلا تضطني مني.. أي: لا تخجلي.. فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال.

قالت زينب: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل.. ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك.

فلما أتمت زينب جهازها.. خشي زوجها أن يخرج بها بنفسه فتكتشف

قريش خروجها.. فأمر أخاه كنانة بذلك.. فقدّم إليها أخو زوجها كنانة بن الربيع بعيرًا.. فركبته وأخذ قوسه وكنانته.

ثم خرج بها نهارًا يقود بها وهي في هودج لها.. فرآها الناس.. وتحدث بذلك رجال من قريش.. كيف تخرج بنت محمد إليه وقد فعل بنا ما فعل في بدر.

فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بمكان اسمه ذو طوى.. وكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود.. فروعها بالرمح وهي في الهودج.. فقيل: إنها كانت حاملًا ففزعت.. وطرحت ولدها.

وأقبل الكفار يتسابقون إليها.. معهم السلاح.. وهي ليس معها إلا أخو زوجها كنانة.. فلما رأى كنانة ذلك.. وبرك على الأرض.. ثم نثر كنانته وصفَّ رماحه بين يديه. **ثم قال**: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهمًا.. وكان راميًا.. فتكركر الناس عنه وتراجعوا.. وأخذوا ينظرون إليه من بعيد.. لا هو يقدر على الذهاب.. ولا هم يجترئون على الاقتراب منه.

حتى بلغ أبا سفيان أن زينب خرجت إلى أبيها.

فأقبل في جلّة جمع من قريش.. فلما رأى كنانة قد تجهز بنبله.. ورأى القوم قد استوفزوا لقتاله.. صاح به وقال: يا أيها الرجل كُفَّ عنا نبلك حتى نكلمك.. فكفَّ نبله.

فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه.. فقال: إنك لم تصب.. خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانيةً.. وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا في بدر.. وما دخل علينا من محمد.. قتل أشرافنا.. ورمل نساءنا.. فإذا رآك الناس.. وتسامعت القبائل أنك خرجت بابنته علانية على رءوس الناس من بين أظهرنا..

سيظنون أن ذلك عن ذل أصابنا. وأن ذلك ضعف منا ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها من أبيها من حاجة.. وما لنا من ثأر عليها.

ولكن ارجع بالمرأة.. حتى إذا هدأت الأصوات.. وتحدث الناس أن قد رددناها.. فسُلّها سرًّا.. وألحقها بأبيها.

فلما سمع كنانة ذلك اقتنع به وعاد بها، فأقامت ليالي في مكة حتى إذا هدأت الأصوات.. خرج بها ليلة من الليالي.. فمشى بها.. حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه.. فقدما بها ليلًا على رسول الله ﷺ.

فتأمل كيف كان أبو سفيان رفيقًا.. وكيف استطاع أن يمتص غضب كنانة.. ويمنع مقتله ربما يقتل فيها بنت رسول الله ﷺ.

هذا.. وأبو سفيان في ذلك الوقت كافر.. فما بالك بالمسلمين.

وحي

ما كان الرفق في شيء إلا زانه..

وما نزع من شيء إلا شانه.

بين الحي.. والميت

كان ثقيلًا على الناس.. على زملائه.. جيرانه.. إخوانه.. حتى على أولاده.

نعم.. كان ثقيل الدم.. طالما سمعهم مرارًا يقولون: يا أخي ما عندك مشاعر!! لم يكن يتفاعل معهم أبدًا.

أتاه ولده يومًا فرحًا مستبشرًا.. يلوّح بدفتر الواجب، وقد وقّع المدرس فيه كلمة «ممتاز».. لم يلتفت الأب إليه.. وإنما قال: طيب.. عادي.. والله لو أنك جايب شهادة الدكتوراه!!

كان المنتظر غير ذلك.. طالب عنده في الفصل.. كان خفيف الدم.. لاحظ ثقل الدرس (والمدرس!!)، فلطَّف الجوَّ بنكتة أطلقها.. فلم تتحرك تعابير وجه المدرس وإنما قال: تستخف دمك؟!

كنت أتمنى أن يكون تصرفه مع الطالب غير ذلك.

دخل إلى البقالة.. فقال له العامل البسيط: الحمد لله.. جاءتني رسالة من أهلي.. لم يتفاعل.. هلا سأله نفسه لماذا أخبره أصلًا.. والله ما أخبره العامل المسكين إلا ليشاركه فرحته.

زار أحد زملائه.. فوضع له القهوة والشاي.. ثم دخل البيت، وجاء بطفله الأول حديث الولادة.. قد لفَّه في مهاده.. ولو استطاع أن يلفه بجفون عينيه لفعل.. ثم وقف به بين يديه، وقال: ما رأيك في هذا البطل؟

فنظر إليه ببرود.. وقال: ما شاء الله.. الله يخلي لك إياه.

ثم رفع فنجان الشاي ليشرب.. كان المنتظر أن يتفاعل أكثر.. يأخذ

الغلام بين يديه.. يقبله.. يمدح جماله.. وصحته.. لكن صاحبنا كان (غبيًّا).

عندما تتعامل مع الناس.. قس الأمور بأهميتها عندهم.. لا عندك أنت.. فكلمة «ممتاز» بالنسبة لولدك أغلى عنده من شهادة الدكتوراه.. وهذا المولود عند صاحبك أغلى عنده من الدنيا.. كلما رآه ودَّ أن يشق قلبه ويسكنه فيه.. أفلا يستحق منك حبك لصاحبك أن تشاركه ولو بعض شعوره.

أحيانًا يكون بعض الناس متحمسًا لشيء معين فتحمَّس معه.. لا تكن جاف المشاعر.. عديم الأحاسيس.. بل جامل.. وتفاعل وتظاهر بالسرور أو الحزن.. أو الدّهشة.. لا تكن ميتًا.

لذلك تجد الذين لا يتفاعلون مع الناس يشتكي أحدهم دائمًا: لماذا أولادي لا يحبون (السوالف) معي.

فنقول: لأنهم: يحكون لك النكتة فلا تتفاعل!!

ويروون قصصهم في مدارسهم.. وكأنهم يكلمون جدارًا.. فلا ينشطون للجلوس معك.. ولا الحديث.

حتى لو ذكر لك شخص قصة.. أنت تعرفها.. فلا مانع من التفاعل معه.

قال عبد الله ابن المبارك: والله إن الرجل ليحدثني بالحديث، وأنا أعرفه من قبل أن تلده أمه فأسمعه منه.. وكأني أول مرة أسمعه.

ما أجمل هذه المهارة.

قبيل معركة الخندق.. عمل المسلمون في حفر الخندق حتى أحكموه.. وكان من بينهم رجل اسمه جعيل.. فغيَّره النبي ﷺ إلى عمرو.. فكان الصحابة يشتغلون.. ويعملون.. ويرددون قائلين:

سماه من بعد جُعَيل عمرًا ... وكان للبائس يومًا ظهرًا

فكانوا إذا قالوا: عمرًا.. قال معهم رسول الله ﷺ: عمرًا.

وإذا قالوا: ظهرًا.. قال لهم: ظهرًا.. فيتحمسون أكثر.. ويشعرون أنه معهم.

ولما أقبل الليل عليهم اشتد البرد.. واستمروا يحفرون.

فخرج عليهم رسول الله ﷺ.. فرآهم يحفرون بأيديهم راضين مستبشرين.

فلما رأوا رسول الله ﷺ قالوا:

نحن الذين بايعوا محمدًا ... على الجهاد ما بقينا أبدًا

فقال مجيبًا لهم: «**اللهم إن العيش عيش الآخرة؛ فاغفر للأنصار والمهاجرة**».

ويستمر تفاعله معهم.. طوال الأيام.. فسمعهم مرةً، وقد علاهم الغبار.. وهم يرددون:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألي قد بغوا علينا ... إذا أردوا فتنة أبينا

فكان يرفع صوته متفاعلًا معهم قائلًا: أبينا.. أبينا.

وكان ﷺ إذا مازحه أحد تفاعل معه.. وضحك وتبسم.

دخل عليه عمر ﷺ وهو ﷺ غضبان على نسائه.. وذلك لما أكثرن عليه مطالبته بالنفقة.. فقال عمر في نفسه لأضحكن رسول الله ﷺ.. ثم قال: يا رسول ا لله.. لو رَأَيْتَنا وَكُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ.. نَغْلِبُ النِّسَاءَ.. فكنا إذا سألت

أحدنا امرأته نفقة قام إليها فوجأ عنقها.. فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمدينَةَ إِذَا قَوْمٌ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُم.. فطَفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم.. فتبسم النبي ﷺ.

ثم زاد عمر الكلام.. فازداد تبسم النبي ﷺ.

وتقرأ في أحاديث أنه تبسم حتى بدت نواجذه.. فما أعظم من أدّبه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].. ثم قال لنا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]..

وكان ﷺ يتعامل مع أنواع من الناس بعضهم لا يقدرون التعامل الراقي.. ولا يتفاعلون معه.. بل ينغلقون ويتعجلون.. ومع ذلك كان يصبر عليهم.

كان ﷺ.. يومًا نازلًا بموضع يقال له: «الجعرانة» بين مكة والمدينة.. ومعه بلال.. فجاءه ﷺ أعرابيٌّ يبدو أنه كان قد طلب من النبيِّ ﷺ حاجة فوعده بها، ولم تتيسر بعد.. وكان الأعرابي مستعجلًا.. فقال: يا محمد.. ألا تنجز لي ما وعدتني؟

فقال له ﷺ متلطفًا: «**أبشر**».

أبشر.. ما أجمل الكلمة.. وهل هناك كلمة أرق منها..!!

لكن الأعرابي لم يتفاعل ولم يجامل.. وإنما صاح بكل صلافة: قد أكثرت عليَّ من أبشر!

فغضب النبي ﷺ من عبارته.. لكنه كتم غيظه.. والتفت إلى أبي موسى وبلال وكانا جالسين بجانبه.

فقال: ردَّ البشرى فاقبلا أنتما.. فاستبشرا.

وقالا: قبلنا البشرى يا رسول الله.. ثم دعا ﷺ بقدح فيه ماء.. فغسل

يديه ووجهه فيه ومجَّ فيه.

ثم قال: «اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا».

أي: أبشرا ببركة هذا الماء.. فأخذا القدح ففعلا ما أمرهما به وهما فرحان مستبشران.

وكانت أم سلمة -رضي الله عنها- قريبة منهم.. جالسة وراء ستار.. فأرادت ألا تفوتها البركة.. فنادت من وراء الستر: أفضلا لأمكما.. أي: أبقيا لها منه.. فأفضلا لها منه طائفة وأرسلاه إليها.. فأخذته وفعلت به ما أمر به النبي ﷺ..[1]

إذن كان حبيبنا وقرة أعيننا رسول الله ﷺ لطيف المعشر.. أنيس المجلس.. متحملًا.. لا يعمل قضية وخلافًا من كلِّ شيءٍ.

جلس ﷺ يومًا مع عائشة.. فأخذت تحدثه بأحاديث نساء.. وهو يتفاعل معها.. وهي تفصل الكلام وتطيل.. وهو على كثرة مشاغله يستمع ويتفاعل ويعلق.. حتى قضت حديثها.

فما هي القصة التي حدَّثته بها؟!

حدثته أنه جلست إحدى عشرة امرأة في أيام الجاهلية.. فتعاهدن وتعاقدن ألا يكتُمن من أخبار أزواجهن شيئًا.. فجعلن يتذاكرن أزواجهن بما فيهم ولا يكذبن!! فماذا قُلْنَ؟!

قالت الأولى:

زوجي لحم جمل غث على رأس جبل.. لا سهل فيرتقى، ولا سمين

---

(١) متفق عليه.

فينتقل.

تشبِّه حال زوجها بالجبل الوعر الذي وضعوا فوقه لحم جمل كبير غير جيد.. فلا يحرصُ أحد على الوصول إليه لصعوبة صعود الجبل.. واللحم أيضًا رديء جدًّا لا يستحق التعب لأجله.. أي: لسوء خلقه.. وأنه يتكبر.. مع أنه ليس عنده ما يتكبر بسببه؛ فهو بخيل فقير.

قالت الثانية:

زوجي لا أبث خبرَهَ.. إني أخاف ألا أذره.. إن أذكُره أذكر عجَرَهُ وبجَرهَ.

أي: زوجها كثير العيوب.. وتخشى إذا ذكرت ما فيه أن يبلغه ذلك فيطلقها.. وهي متعلقة به بسبب أولادها.. لكنها لم تمدْحه فإن له عُجَر وبُجَر!!

والعجرُ: أن تنعقد العروق في الجسد حتى تصير متنفخة.. فتؤلم.. والبُجَر: انتفاخ عروقٍ في البطن..!!

قالت الثالثة:

زوجي العشنَّق.. إن أنطق أطلق.. وإن أسكت أعلَّق.. وهو على حد السِّنان المُذَلَّق.

أي: زوجها طويل قبيح.. سيئ الخلق.. ولا يتسامح معها، بل على مثل حد السيف!!

فهي مهددة بالطلاق كل لحظة.. لا يحتمل كلامها.. ومتى اشتكت إليه شيئًا طلَّقها.. ولا يعاملها معاملة الأزواج؛ فهي عنده كالمعلقة لا متزوجة ولا مطلقة.

قالت الرابعة:

زوجي كـلَيْل تهامة.. لا حَرٌّ ولا قرٌّ.. ولا مخافة ولا سآمة.

من المعلوم أن ليل تهامة لا رياح فيه، ولا غبار؛ فيطيب لأهله.. فوصفت زوجها بجميل العشرة.. واعتدال الأخلاق.. فلا أذى عنده.

قالت الخامسة:

زوجي إن دخل فهد.. وإن خرج أسد.. ولا يسأل عما عهد.

أي: إذا دخل بيته صار كالفهد، وهو الحيوان المعروف، وهو كريم نشيط.. وإذا خرج من البيت وخالط الناس؛ فهو أسد لشجاعته.. وهو أيضًا سمحٌ لا يدقق في السؤال عما يأخذه أهله أو يصرفونه.

قالت السادسة:

زوجي إن أكف لفَّ.. وإن شرب اشتفَّ.. وإن اضطجع التفَّ.. ولا يُولج الكفَّ.. ليعلم البثَّ.

أي: إن زوجها يكثر الأكل حتى يلفه لفًّا، فلا يبقي لهم شيئًا.. والشَّراب يشفه شفًّا.. يشربه كله.. وإذا نام التفَّ باللحاف، ولم يدع لزوجته شيئًا.. وإذا حزنت لم يقرب كفه إليها أو يلاطفها ليعلم سبب حزنها.

قالت السابعة:

زوجي غياياء أو عياياء (أي: غبي!!) طباقاء (أحمق!).. كل داء له داء (جميع العيوب فيه!!

إن حدثته سبك.. (لا يقبل حديثًا ولا مؤانسة.. بل يسب ويلعن دومًا).

وإن مازحته شجَك (ضرب رأسك فجرحه!).

أو فلك (ضرب الجلد فجرحه).

أو جمع كلا لك.. (يضرب كل المواضع؛ الرأس والجسد!).

قالت الثامنة:

زوجي.. المسُّ مس أرنب.. (أي ناعم رقيق).

والريح ريح زرنب.. (وهو نبات طيب الرائحة).

وأنا أغلبه.. الناسَ يَغْلبُ.. (أي: سهل معها ينصاع لما تريد.. لكنه بطل يغلب الناس، وشخصيته أمامهم قوية)..

قالت التاسعة:

زوجي رفيع النجاد.. (بيته واسع مفتوح للضيوف).

عظيم الرماد.. (كثير إشعال ا لنار استقبالًا للضيوف وطبخًا لهم).

قريب البيت من الناد.. (المجلس الذي يجلس فيه مع أصحابه، وهو النادي القريب من بيته لحرصه على أهله).

لا يشبع ليلة يُضَاف.. (لا يأكل كثيرًا عند الناس).

ولا ينام ليلة يخاف.. (إذا كان هناك خطر بالليل من عدو أو غيره.. يظل مستيقظًا يحرس ويراقب).

قالت العاشرة:

زوجي مالك.. وما مالك؟!.. مالك خير من ذلك.. بله إبل كثيرات المبارك.. قليلات المسارح.. وإذا سمعن المزهر.. أيقنَّ أنهن هوالك.

(زوجها اسمه مالك.. مهما وصفته لن تحيط بأوصافه الجميلة.. إبُله دائمًا قريبة منه، وقل ما تسرح، أي: تذهب للرعي.. لتكون جاهزة دائمًا للحلب منها ونحرها للضيوف.. وإذا سمعت الإبل صوت المزهر.. أي: السكين تحُد

وتجهز.. علمت أن سيهلك بعضهن ذبحًا للضيوف..).

قالت الحادية عشرة:

زوجي أبو زرع؟! (اسمه أبو زرع).. فما أبو زرع؟!

أناس من حُلي أُذني.. (ألبسها الحلي والذهب).

وملأ من شحم عضدي.. (سمنت عنده).

وبجحني فبجحت إلى نفسي.. (مدحني حتى أعجبت بنفسي).

وجدني في أهل غنيمة بشق.. (كان أهلها فقراء لا يملكون إلا غنيمات).

فجعلني في أهل صهيل وأطيط (نقلها إلى بيت فيه خيل وإبل).

ودائس ومنق (أي: دواب كثيرة).

فعنده أقول فلا أُقَبَّح.. (تتكلم بما شاءت، ولا يَنْتَقِدُ كلامها).

وأرقد فأتصبَّح.. (تشبع نومًا إلى الصباح.. لكثرة الخدم).

وأشرب فأنفتح.. (جميع الأشربة عندها.. تروي منها).

أمُّ أبي زرع؟! فما أم أبي زرع!!

عكومها رداح.. (سمينة جميلة).

وبيتها فساح.. (بيتها واسع).

ابن أبي زرع؟! فما ابن أبي زرع!!

مضجعة كمسلَّ شطبة.. (ينام نومًا رفيقًا في مكان صغير بأدب).

ويشبعه ذراع الجفرة.. (لا يأكل كثيرًا).

بنت أبي زرع؟! فما بنت أبي زرع!!

طوع أبيها وطوع أمها.. وملء كسائها.. (مستترة).

وغيظ جارتها (تغار جاراتها من جمالها ولذة عيشها).

جارية أبي زرع؟!

فما جارية أبي زرع!! (الخادمة!!)

لا تَبُثُّ حديثنا تَبثيثًا.. (لا تنشر أسرار البيت).

ولا تنفثُ ميرتنا تنفيثًا.. (لا تُبدد طعام البيت وتعبث به).

ولا تملأ بيتنا تعشيشًا.. (لا تمهل البيت فيمتلأ بالأوساخ).

ثم قالت:

خرج أبو زرع والأوطاب تمخض.. (خرج من بيته يومًا في وقت ربيع).

فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين.. (رأى امرأة جالسة حولها طفلان جميلان قويًّا البنية).

يلعبان من تحت خصرها برمانتين (يلعبان بثدييها).

فطلقني ونكحها.. (أعجبته.. فطلَّق أمَّ زرع وتزوَّجها!!).

فنكحت بعده رجلًا سريًّا.. (تزوَّجت أم زرع رجلًا كريمًا).

ركب شريًّا.. (ركب خيلًا سابقًا).

وأخذ خطيًّا.. (أخذ السيف).

وأراح عليَّ نعمًا ثريًّا.. (أكرمها وأهداها لأنه ثري).

وأعطاني من كل رائحة زوجًا.. (أكثر لها من الأطياب، ويعطيها اثنين من كل شيء لتستعمل، وتهدي إن شاءت).

وقال: كُلي أمَّ زرع.. وميري أهلك.. (أهدي لأهلك وأعطيهم).

ثم قالت وهي تحكي شوقها إلى زوجها الأول أبي زرع:

فلو جمعت كل شيء أعطانيه.. ما بلغ أصغر آنية أبي زرع.. (سبحان الله لا يزال قلبها معلقًا بأبي زرع..!! ما الحب إلا للحبيب الأول).

انتهت القصة.. كانت حكاية طويلة لإحدى عشرة امرأة.. فيما ترى.. كم استغرقت من وقت النبي ﷺ، وهو يستمع إليها من حبيبة قلبه ورفيقة دربه.. أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها.

كان ﷺ يستمع بكلِّ إنصات وتفاعل وإظهار للعجب والاستمتاع إلى عائشة وهي تحدثه.. ولم يُظْهِر لها ضَجَرًا ولا مللًا.. مع تعبه وكثرة مشاغله.. وتراكم همومه.

حتى إذا انتهت عائشة من حديثها.. قال ﷺ متفاعلًا معها.. وإظهارًا لها أنه فهم القصة وأدرك مغزاها.. وأنها لم تكن تحدثه بالقصة، وهي في وادٍ وهو في وادٍ آخر.. قال لعائشة: «**كنت لك كأبي زرع لأم زرع**».

إذن.. اتفقنا على أهمية إظهار اللطف والاهتمام بالناس.

فإذا جاءك ولدك متزينًا بثوب جميل.. ما رأيك يا أبي؟.. تفاعل معه.. قل سبحان الله.. ما هذا الجمال!!.

ابنتك.. زوجتك.. زوجك.. ولدك.. زميلتك.

كلٌّ من تخالطهم.. كن حيًّا متفاعلًا.

أحيانًا تكون ناسيًا الموضوع.

قال لك - مثلًا: أبشرك أن الولد شُفي من مرضه.

فلا تقل: أصلًا.. متى مرض؟!! وإنما قل: الحمد لله.. أسأل الله أن يجمع

له بين الأجر والعافية.. سررتني سرك الله.

أو قال: أخي خرج من السجن..

فلا تقل: والله ما دريت أصلًا أنه دخل السجن.. وإنما تفاعل.. قل: الحمد لله هذا خبر مفرح.. والله يديم سعادتكم.

وأخيرًا.. يا جماعة.. التشجيع والتفاعل ينفع حتى مع الحيوانات.

قال أبو بكر الرقي:

كنت بالبادية.. فوافيت قبيلة من قبائل العرب.. فأضافني رجل منهم، وأدخلني خباءه.. فرأيت في الخباء (الخيمة) عبدًا أسود مقيدًا بقيد.. ورأيت جمالًا قد ماتت أمام البيت.. وقد بقي منها جمل، وهو ناحلٌ ذابل كأنه ينزع روحه.

فقال لي الغلام:

أنت ضيف.. ولك حق.. فتشفع فيَّ إلى مولاي.. فإنه مكرم لضيفه.. فلا يرد شفاعتك في هذا القدر.. فعساه يحل القيد عني.

فسكتُّ عنه.. ولم أدر ما جُرْمُه.

فلما أحضروا الطعام.. امتنعت.. وقلت: لا آكل.. ما لم أشفع في هذا العبد.

فقال السيد: إن هذا العبد قد أفقرني.. وأهلك جميع مالي.

فقلت: ماذا فعل؟!

فقال: إن له صوتًا نديًّا طيبًا.. وإني كنت أعيش من ظهور هذه الجمال.. فحمَّلها أحمالًا ثقالًا.. وكان ينشد الأشعار ويلحنها ويحدو بها.. حتى قطعت

مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة من طيب نغمته.

فلما حطت أحمالها.. ماتت كلها.. إلا هذا الجمل الواحد.. ولكن أنت ضيفي.. فلكرامتك قد وهبته لك.. ثم قام وأطلق الغلام من قيده.

قال أبو بكر: فاشتقت إلى سماع هذا الصوت.. فلما أصبحنا أمرته أن يحدو على جمل يستقي الماء من بئر هناك.. لينشط الجمل للعمل.

فانطلق الغلام بصوت حسن.. فلما رفع صوته.. سمعه الجمل فهام وهاج ونسي نفسه.. حتى قطع حباله.

ووقعت أنا على وجهي من حسن الصوت.. فما أظن أني سمعت قط صوتًا أطيب منه.

فإذا كانت الحيوانات تتفاعل مع الصوت الحسن؛ فيزداد حماس العبد فيحسن صوته.. ويتغنى.. فما بالك بالآدميين.

طور نفسك بالتدريب

كن حيًّا لا ميتًا.. تفاعل بكلامك.. بتعبيرات وجهك.

حتى يأنس الآخرون بك.

اجعل لسانك عذبًا!!

لا تخلو حياتنا من مواقف نحتاج فيها إلى تقديم توجيهات ونصائح للآخرين.. نقدِّمها إلى الولد.. الزوج.. الصديق.. الجار.. الأبوين.

تختلف نهايات النصائح.. باختلاف بداياتها.

أعني: إن كانت البداية بأسلوب مناسب.. ومدخل لطيف.. انتهت كذلك.. وإن كانت بأسلوب جاف.. ومدخل عنيف.. انتهت كذلك.

عندما ننصح الناس.. فنحن في الواقع نتعامل مع قلوبهم.. لا أجسادهم.. لذلك تجد بعض الأبناء يتقبل من أمه النصح، ولا يتقبل من أبيه.. أو العكس.

والطلاب يتقبلون من مدرس.. دون الآخر.. وأول البراعة في النصيحة.. ألا تكثر منها وتدقق على كل صغيرة وكبيرة.. حتى لا يشعر الآخرون أنك مراقب لحركاتهم وسكناتهم.. فتثقل عليهم..

ليس الغبي بسيد في قومه ... لكن سيد قومه المتغابي

وإن استطعت أن تقدِّم النصيحة على شكل اقتراح.. فافعل.

مثال: قدَّمت زوجتك طعامك إليك.. وقد تعبت في صنعه وإعداده.. ولكنه مالح.. فلا تقل: أووووه.. ما هذا الطعام!!.

أعوذ بالله!! وضعت علبة ملح كاملة!!.

لا.. وإنما قل: لو قللت الملح في الطعام.. لكان أحسن.

وكذلك لو رأيت، ولدك متسخ الملابس.. فقدِّم النصيحة على شكل

اقتراح.. لأن الناس لا يحبون تلقي الأوامر.. فقل: لو تغيِّر ملابسك بثياب أجمل.

ولو تأخر طالب عن مدرسته.. قل: لو ما تتأخر عن مدرستك مرة أخرى.. أفضل.. استعمل هذه الأساليب دائمًا: ما رأيك لو فعلت كذا.

أقترح عليك كذا وكذا.

فهذه الأساليب الرقيقة أحسن من قولك.. يا قليل الأدب.

كم مرة قلت لك.

أنت ما تفهم.

إلى متى أعلمك؟!!

اجعله يحتفظ بماء وجهه.. ويشعر بقيمته حتى وهو مخطئ.. أتدري لماذا؟

لأن المقصود علاج أخطائه لا الانتقام منه أو إهانته.

يعني يا جماعة.. بالعبارة الصريحة: لا أحد يحب أن يتلقى الأوامر.

وانظر إلى المنهج النبوي في ذلك.

أراد ﷺ يومًا أن يوجه عبد الله بن عمر للتعبد بصلاة الليل.. فما دعاه وقال: يا عبد الله قم الليل.

وإنما قدم النصيحة على شكل اقتراح.

وقال: نِعْمَ الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل.

وفي رواية قال: يا عبد الله لا تكن مثل فلان.. كان يقوم الليل فترك قيام الليل.

بل إن استطعت أن تلفت نظره إلى الأخطاء من حيث لا يشعر؛ فهو أولى.

عطس رجل عند عبد الله بن المبارك.. فلم يقل: الحمد لله.

فقال عبد الله: ماذا يقول العاطس إذا عطس؟

قال: الحمد لله.

فقال عبد الله: يرحمك الله.

وكان رسول الله ﷺ كذلك.

كان إذا انصرف من صلاة العصر.. دخل على نسائه واحدة واحدة.. فيدنو من إحداهن.. ويتحدث معها.

فدخل على زينب بنت جحش.. فوجد عندها عسلًا.. وكان ﷺ يحب العسل والحلواء.. فأخذ يأكل منه ويتحدث معها.. فاحتبس عندها أكثر ما كان يحتبس عند غيرها.

فغارت عائشة وحفصة.. وتواصتا من دخل عليها تقول له: أجد منك ريح مغافير.. وهو شراب حلو يشبه العسل.. ولكن له رائحة سيئة.

وكان ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح من بدنه أو فمه.. لأنه يناجي جبريل.. ويناجي الناس.. فلمَّا دخل على حفصة.. سألته ماذا أكل؟

فقال: «**شربت عسلًا عند زينب**».

فقالت: إني أجد منك ريح مغافير.

فقال: «**لا.. بل شربت عسلًا.. ولن أعود له**».

ثم قام ودخل على عائشة.. فقالت له عائشة مثل ذلك.

ومضت الأيام.. وكشف الله له القضية كلها.

وبعد أيام.. أسرَّ إلى حفصة -رضي الله عنها- حديثًا.. فأظهرته..

فدخل عليها يومًا.. وعندها الشفاء بنت عبد الله.. وكانت صحابية تتعلم الطب.. وتعالج الناس.

فأراد ﷺ أن يلفت نظر حفصة إلى خطئها معه بأسلوب غير مباشر.. ليكون أرفق وأحسن.. فماذا فعل؟

فقال ﷺ للشفاء: ألا تُعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة!!

ورقية النملة كلام كانت نساء العرب تقوله.. يعلم كل من سمعه أنه كلام لا يضرب ولا ينفع.

ورقية النملة التي كانت تعرف بينهن أن يقال:

العروس تحتفل.

وتختضب وتكتحل.

وكل شيء تفتعل.

غير ألا تعصي الرجل.

فأراد ﷺ بهذا المقال تأنيب حفصة والتأديب لها تعريضًا.. بأن تردد جملة: غير ألا تعصي الرجل.

وما أجمل هذه الأساليب في علاج أخطاء الآخرين ليبقى الوُدّ في القلوب متينًا لا تهزه الأخطاء، ولا تكدره كثرة النصائح.

أحد السلف استلف منه رجل كتابًا.. فردَّه إليه بعد أيام وعليه آثار طعام.. كأنه حمل عليه خبزًا أو عنبًا.

فسكت صاحب الكتاب.. وبعد أيام جاءه صاحبه يستعير منه كتابًا آخر.. فأعطاه الكتاب في طبق..!!

فقال الرجل: إنما أريد الكتاب.. فما بال الطبق؟!

فقال: الكتاب لتقرأ فيه.. والطبق لتحمل عليه طعامك!!

فأخذ الكتاب.. ومضى.. فقد وصلت الرسالة.

وأذكر أن أحدهم كان يعود إلى بيته ليلًا.. وينزع ثوبه.

يعلقه على الشماعة.. وينام.

فتأتي زوجته.. وتفتح محفظة النقود.. ثم تأخذ الصرف الموجود.. من فئة الريال.. والخمسة.

فإذا استيقظ صباحًا وذهب إلى عمله.. واحتاج أن يحاسب في بقالة ونحوها.. لم يجد صرفًا.

فتحيَّر الرجل.. تُرى أين ذهب المال؟!

فراقبها.. حتى فهم القضية.. فرجع إلى بيته يومًا.. وقد جعل في جيبه ضفدعًا!

ونزع ثوبه كالعادة.. واضطجع كهيئة النائم.. وأخذ يشخر.. وهو يراقب الثوب.. فأقبلت زوجته لتأخذ ما يتيسر.. كالعادة!!

أقبلت إلى الثوب تمشي رويدًا.. أدخلت يدها بهدوء.. فلمست الضفدع.. فتحرك فجأة.. فصرخت: آآآآه.. يدي.. ففتح الزوج عينيه.. وقال: آآآه جيبي..

ليتنا نستعمل هذا الأسلوب.. مع جميع الناس.. أولادنا إذا وقعوا في أخطاء.. ومع طلابنا.

نايف أحد الأصدقاء.. كان له أم صالحة.. لا ترضى أن يبقى في البيت

صور أبدًا.. لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب ولا صورة.

كان عندها طفلة صغيرة.. عندها ألعاب متنوعة.. إلا الدُّمى.. العرائس.. كانت الأم تمنعها من شراء الدُّمى والعرائس، وتأذن لها في بقية أنواع الألعاب.

أهدت إليها خالتها دُمية.. عروسة.. وقالت لها: العبي بها في غرفتك.. واحذري أن تراها أمك.

وبعد يومين.. علمت الأم.. فأرادت أن تقدِّم النصيحة بأسلوب مناسب.

جلسوا على الطعام.. فقالت أم نايف: يا أولاد..!! من يومين.. وأنا أشعر أن البيت ليس فيه ملائكة!! لا أدري لماذا خرجت.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

والبنت الصغيرة تسمع وهي ساكتة.. وبعد الغداء رجعت الصغيرة إلى غرفتها.. فإذا بين يديها ألعاب كثيرة.. والعروسة من بينها.

فالتقطتها.. وجاءت بها إلى الأم وقالت: ماما.. هذه التي طردت الملائكة.. افعلي بها ما شئت!!

فما أجمل هذه الأساليب ليكون أحدنا مصلحًا لأخطاء الناس.. ناصحًا لهم.. وفي الوقت نفسه خفيف النفس عليهم غير مضجر ولا ممل لهم.

يعني دع المنصوح يحتفظ بماء وجهه.. ويمكن أن تأكل العسل من غير أن تحطم الخلية.

لا تنصحه كأنه قد كفر بفعله.. بل أحسن الظن به.. واعتبر أنه وقع في الخطأ من غير قصد.. أو من غير أن يعلم.

كانت الخمر في أول الإسلام لم تحرم بعد.. ثم نزل تحريمها على مراحل..

ففي المرحلة الأولى: بغَّضهم الله تعالى في الخمر، ولم يقطع بتحريمها.. فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم في المرحلة الثانية: حرَّم عليهم شربها قرب وقت الصَّلاة.. فقال: ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].. فصار الشخص لا يكاد أن يجد وقتًا لشُرْب الخمر لانشغاله بالصلوات وتتابعها.

ثم في المرحلة الأخيرة.. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].. فترك كلّ من كان يشربها شرْبها وانتهوا عنها.

إلا أن بعض الناس خارج المدينة لم يعلموا بالتحريم القطعي للخمر.

وفي يوم أقبل عامر بن ربيعة.. الصحابي الجليل.. من سفر.. فأهدى لرسول الله ﷺ راوية خمر.. جرة كاملة مملوءة خمرًا.

ولم يكن النبي ﷺ يشرب الخمر لا في الجاهلية، ولا في الإسلام.. لكن الناس كانوا يهدون إليه هدايا أحيانًا لا يستعملها، وإنما ليهديها أو يبيعها.

فكان بعضهم قد يهدي إليه ذهبًا أو حريرًا فلا يلبسه، وإنما يهديه لزوجاته أو غيرهن.

نظر النبي ﷺ على الخمر مستغربًا.. والتفت إلى عامر بن ربيعة.. وقال: «أما علمت أنها قد حرمت..؟»

قال: حرمت؟! لا.. ما علمت يا رسول الله.

قال: «فإنها قد حرمت».

فحملها عامر.. فأسرَّ إليه بعضهم بأن يبيعها.

فسمعه النبي ﷺ فقال: «لا.. إن الله إذا حرَّم شيئًا.. حرَّم ثمنه».

فأخذها ﷺ فأهراقها على التراب[1]..

وانتبه أن تمدح نفسك وأنت تنصح.. فترفع نفسك وتسحب المنصوح إلى القاع.. لا أحد يرضى بذلك.

بعض الآباء..مثلًا.. إذا نصح ولده بدأ يذكر أمجاده.. أنا كنت وكنت.. ولعل الولد يعلم تاريخ والده..!!

فإذا احتجت أن تضرب مثالًا وأنت تنصح؛ فحاول جاهدًا ألا تضربه على نفسك، فتذكر بطولاتك وأمجادك.. وإنما أضرب المثال بغيرك.. حتى لا يشعر المنصوح أنك تهينه وتمدح نفسك.

باختصار

«الكلمة الطيبة.. صدقة» حديث شريف.

(١) رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

اختصر.. ولا تجادل

يقولون: إن الناصح كالجلاد.. وبقدر مهارة الجلاد في الجلد.. يبقى الألم.. لاحظ: أقول: مهارة الجلد.. لا قوة الجلد!! فالجلاد العنيف الذي يضرب بقوة.. يتألم المضروب وقت وقوع السياط.. ثم ما يلبث حتى ينساها.

أما الجلاد الأستاذ في صنعته.. فقد لا يضرب بقوة.. لكنه يعلم أين يوقع السوط.

كذلك الناصح.. ليست العبرة بكثرة الكلام.. ولا طول النصيحة.. وإنما بأسلوب الناصح.

فاختصر قدر المستطاع.. إذا أردت أن تنصحه فلا تلق عليه محاضرة..!!

خاصة إذا كان الأمر متُفقًا عليه.. كمن تنصحه عن الغضب.. أو شرب الخمر.. أو ترك الصلاة.. أو عقوق الوالدين.. إلخ.

تأملت النصائح النبوية الشخصية المباشرة.. فوجدتها لا تزيد الواحدة منها على سطر واحد.. أو سطرين.

اسمع: يا علي.. لا تتبع النظرة النظرة.. فإن لك الأولى، وليست لك الثانية.

انتهى.. نصيحة باختصار.

يا عبد الله بن عمر.. كن في الدنيا كأنك غريب.. أو عابر سبيل. انتهى.. نصيحة باختصار.

يا معاذ.. والله إني أحبك.. فلا تدعنَّ في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. يا عمر.. إنك رجل قوي.. فلا

تزاحمنَّ عند الحجر.

وكذلك كان العقلاء بعده ﷺ يختصرون في نصائحهم.

لقي أبو هريرة ﷺ الفرزدق الشاعر فقال: يا ابن أخي، إني أرى قدميك صغيرتين.. ولن تعدم لهما موضعًا في الجنة.. يعني فاعمل لها.. ودع عنك قذف المحصنات في شعرك.

وعمر ﷺ كان على فراش الموت.. فجعل الناس يدخلون عليه تباعًا يودعونه ويثنون عليه.

وجاء شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله ﷺ.. وقدم في الإسلام ما قد علمت.. ثم وليت فعدلت.. ثم شهادة.

فقال عمر: وددت أن ذلك كفاف لا عليَّ ولا لي.

فلما أدبر الشاب.. فإذا إزاره يمس الأرض.. مسبل أي: إزاره تحت الكعبين.. فأراد عمر ﷺ أن يقدم النصيحة للشاب.. فقال: ردوا عليَّ الغلام.

فلما وقف الشاب بين يديه.. قال: يا ابن أخي.. ارفع ثوبك.. فإنه أتقى لثوبك.. وأتقى لربك[1].. انتهى باختصار.. الرسالة وصلت.

واترك الجدال قدر المستطاع.. خاصةً إذا شعرت أن الذي أمامك يكابر.. فالمقصود إيصال النصيحة إليه، لا فتح المناظرة معه.. وقد ذمَّ الله الجدال: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً**﴾.

وقال ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل».

وقال: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك الجدال وإن كان محقًا».

---

(١) رواه البخاري.

أحيانًا يقتنع الشخص بالفكرة.. لكن أكثر النفوس فيها أنفة وكبر.. كما قال تعالى عن فرعون وقومه لما عرفوا الحق وصدقوه بقلوبهم.. لكن منعهم الكبر من اتباعه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فالغاية عندك أن يعرف المنصوح الخطأ ليتجنبه في المرة القادمة.. وليس الغاية أن تنتصر عليه.. فلستما في حلبة مصارعة.

دخل النبي ﷺ على عليٍّ وفاطمة -رضي الله عنهما- ليلًا.. فقال لهما: ألا تصليان.. أي: ألا تقوما الليل. **فقال عليٌّ**: أنفسنا بيد الله.. متى شاء أن يبعثنا.. بعثنا.

فولاهما النبي ﷺ ظهره.. ومضى وهو يضرب بيده على فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].. (١)

وأحيانًا قد يذكر المنصوح كلامًا يعتذر به، وهو ليس عذرًا مقنعًا لكنه يقوله ليحفظ ماء وجهه. فكن سمحًا واقبل العذر.. ولا تتشدد معه.

ولا تغلق عليه الأبواب.. بل أبقها مفتوحة أمامه، وأنت تنصح.

حتى لو تكلم بكلام خاطئ.. فيمكن أن تعالج خطأه من حيث لا يشعر.. كأن تثني عليه.. وعلى فهمه وجرأته.. ثم تقول: ولكن.. ثم فند كلامه ورُدَّ عليه إن كان خاطئًا.

وجهة نظر

نبِّه على الخطأ باختصار.. ولا تلق محاضرة.

---

(١) رواه البخاري.

لا تبال بكلام الخلق

أعجبتني عبارة رددها ابني عبد الرحمن يومًا.. وأظنه في ذلك السن لم يكن يفقه معناها.. كان يقول: طنِّش تعش تَنْتَعش..!!

تأملت في هذه العبارة وأنا ألاحظ انتقادات الناس.. وآراءهم.. وأحاديثهم.. فوجدت أن الناس في كلامهم وذمهم يتنوعون.. فيهم الناصح الصادق الذي لا يتقن فن النصيحة.. وبالتالي يحزنك بأسلوب نصحه أكثر مما يفرحك.

وفيهم الحاسد.. الذي يقصد حزنك وهمك.

وفيهم قليل الخبرة.. الذي يهذي بما لا يدري.. ولو سكت لكان خيرًا له.

وفيهم من طبيعته الانتقاد أصلًا.. فهو ينظر للحياة بنظارة سوداء.

وقديمًا قيل: لو اتحدت الأذواق لبارت السلع.

ذكروا أن جحا ركب على حمار.. وولده يمشي بجانبه.. فمروا بجمع من الناس.. فقال الناس: انظروا لهذا الأب الغليظ يركب مرتاحًا.. ويدع ولده يمشي في الشمس.

سمعهم جحا.. فأوقف الحمار.. ونزل.. وأركب ولده.. ثم مشيا.. وجحا يشعر بنوع من الزهو.. فمرَّا بقوم آخرين.. فقال أحدهم: انظروا إلى هذا الابن العاق.. يركب ويدع أباه يمشي في الشمس.

سمعهم جحا.. فأوقف الحمار.. ثم ركب مع ولده؛ ليتقيا كلام الناس وانتقاداتهم.. فمرا بقوم.. فقالوا: انظروا إلى هذين الغليظين.. لا يرحمون الحيوان.

فنزل جحا.. وقال: يا ولدي.. انزل.. فنزل الولد وجعل يمشي بجانب أبيه.. والحمار ليس فوقه أحد. فمرا بقوم.. فقالوا: انظروا إلى هذين السفيهين.. يمشيان والحمار فارغ.. وهل خلق الحمار إلا ليركب.. فصرخ جحا وجرَّ ولده معه.. ودخلا تحت الحمار.. وحملاه..!!

ولو أني كنت معهم في ذاك الزمان.. ورأيت جحا وقتها لقلت له:

يا حبيب القلب.. افعل ما تشاء.. ولا تبال بكلام الخلق.. رضا الناس غاية لا تدرك..

ومن الذي ينجو من الناس سالمًا ولو غاب عنهم بين خافيتي نسر

بعض الناس.. لا يفكر في رأيه قبل أن يطرحه.. يأتيك مثلًا بعدما تتزوج.. ويقول: لماذا تخطب فلانة؟ ولماذا تزوجتها؟

وكأني بك.. تتمنى أن تصرخ في وجهه وتقول: يا أخي تزوجت.. خلاص.. انتهى الموضوع.. ما أحد طلب منك اقتراحات.

أو يأتيك وقد بعت سيارتك.. فيقول: ليتك أخبرتني.. فلان كان سيعطيك أكثر.. يا أخي.. بس!! الرجل باع سيارته.. خلاص وانتهى.. لا تشغله بالالتفات وراءه!! وعمومًا..

ليس يخلو المرء من ضد ولو طلب العُزْلة في رأس جبل!!

فلا تعذب نفسك.

تجربة

قال أحد السلف: من جعل دينه عرضة للخصومات.. أكثر التنقل!!